أوّلا: مفهوم التّوقيعات

أ. لغة:

التّوقيعات جمع توقيع من المادّة اللّغوية { و. ق .ع }

والوقع، وقعة الضّرب بالشّيء، ووقع المطر، ووقع حوافر الدابّة، يعني ما يسمع من وقعه، ويقال للطّير إذا كان على أرض أو شجر: هنّ وقوع ووقّع ، والميقعة المكان الذي يقع عليه الطائر. ويقال: وَقّعت الدّواب والإبل: أي ربضت تشبيها بوقوع الطّير، قال:

وَقَعْنَ وُقُوعَ الطَّيْرِ فِيهَا ومَا بِهَا سِوَى جرَّةٌ يَرْجعناها مُتَعلِّل

وقد وقع الدّهر بالنّاس، والواقعة: النّازلة الشّديدة من صروف الدّهر، وفلان وقعة في النّاس، ووقّاع فيهم . ووقائع العرب: أيّامها التي كانت فيها حروبهم .[1]

والتّوقيع: ما يوقّع في الكتاب وهو إلحاق شيء بعد الفراغ منه لمن رفع إليه، كالسّلطان ونحوه من ولاّة الأمر، كما إذا رفعت إلى السّلطان أو الوالي شكاة، فكتب تحت الكتاب، أو على ظهره: ينظر في أمر هذا ويستوفى لهذا حقّه [2] .

والتّوقيع أيضا تظنّي الشّيء وتوهّمه، يقال: وقّع أي: ألق ظنّك على شيء.

والتّوقيع: رمي قريب لا تباعده كأنّك تريد أن توقعه على شيء وكذلك توقيع الأركان.

وهو كذلك إقبال الصّيقل على السّيف بميقعته يحدّده، ومرماة موقّعه، والتّوقيع: التّعريس وهو النّزول آخر اللّيل، وقد وقّعوا.

---

[1]: مادة [وقّع] كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح عبد الحميد هنداوي، م1، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ، 2003 م، ص 392 .

[2]: مادة [وقع]، تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى بن محمد الحسن الزبيدي، تح عبد المنعم خليل إبراهيم وكريم سيد محمّد المحمود، م1، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1، س 1428 هـ – 2007 م، ص 192 .

قال **ذو الرّمة:**

وَقَعْنَ وُقُوعَ الطَّيْرِ فِيهَا ومَا بِهَا مِنْ الجَهْدِ أَنْفَاسُ الرِيَّاحِ الحَوَاشِكِ[1]

والتّوقيع نوع من السّير شبه التّلقيف، وهو رفعه يده إلى فوق [2] والتّوقيع أيضا: الدّبر، وإذا كثر بالبعير الدّبر قيل: إنّه لموقع الظهر، وأنشد **ابن الأعرابي:**

مِثْلُ الحِمَارِ المَوقّـع الظَهْـرِ لاَ يُحْسِنُ مَشيًا إلاَّ إذَا ضُربَا

ويقال السّرور توقيع جائز وطريق موقّع أي مذّلل، ويقال موقّع للذي أصابته البلايا [3] .

ب- اصطلاحا:

التّوقيع من النّاحية الاصطلاحية ما يوقّع في الكتاب، أي يعتمد في الردّ على كتاب مرفـوع إلى الخليفـة أو الوالي أو العامل في أمر يتعلّق بمضمون ذلك الكتاب.[4]

وبعبارة أخرى: " هي ما يعلّقه الخليفة أو الوزيـر أو الرّئيـس على ما يقـدّم إليه مـن الكتـب في شكوى حال أو طلب نوال، وقد تكون آية أو مثلا أو بيت شعر.[5] ولقد عرّفه العديد من العلماء قديما وحديثا.

فمـن القدامـى نجد، **القلقشندى** (ت121هـ) يعرّفه بقوله: **"هي الكتابة على حواشي الرّقاع والقصص بما يعتمد الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة والتحدّث في المظالم وهو أمر جليل، ومنصب حفيل"** [6]

---

[1]: ديوان ذي الرمّة، شرح الخطيب التّبريزي، كتب مقدّمة وهوامشه وفهارسه، مجيد طرّاد ،دار الكتاب العربي، ط 2، 1416هـ - 1996 م، ص 581.

[2]: تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزّبيدي، ص 196 .

[3]: مادّة [وقع] معجم الصّحاح، ، إسماعيل بن حماد الجوهري، تح خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 3، 1429 هـ - 2008 م ،ص 1155.

[4]: تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، محمود المقداد، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، 1413 هـ - 1993م، ص396.

[5]: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيّات، دار نهضة، مصر، القاهرة، ط 25، د س، ص219.

[6]: صبح الأعشى في صناعة الانشاء، أبو العباس القلقشنديّ، تح محمد حسن ويوسف علي . دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1407 هـ - 1987 م، ص 110

وكذلك **ابن درستويه** (ت347هـ) قوله: "واعلم أنّ التوقيع إنّما هو أمر أو نهي، فالواجب أن يجرى مجراه لا غير، وأن يثبت حرف الأمر فيما كان منه أمرا إذا لم يسمّ المأمور، كما ينبث حرف النّهي فيما كان نهيا، ولا يجوز حذف واحد من هذين الحرفين.[1]

أمّا المعاصرون، فالمعنى واحد ولكنّ الاختلاف يكمن في الصّياغة فقط من ذلك: **عمر فرّوخ: "ما كان الخلفاء يثبتونه من الجمل القصار في أعقاب الرّسائل التي ترد إليهم من الولاّة وسائر النّاس ليجيزوا ما في هذه الرّسائل".**[2]

وأيضا **محمود عبد الرحيم صالح: "هو تعقيب موجز كان يكتبه الخلفاء الرّاشدون على الرّسائل الواردة إليهم من أفراد المسلمين أو من ولاّة البلدان، يردّ فيه الخليفة بما يراه مناسبا".**[3]

وأخيرا يمكن القول: **"أنّ فنّ التّوقيعات من الفنون الجديدة، وهي عبارات قصيرة وجمل كان يوقّع بها الخلفاء والمسؤولون على ما يرفع إليهم من أوراق أو رقاع تتضمّن تظلّما أو طلبا من محتاج"** [4]

ونستخلص من ذلك كلّه أنّ التّوقيع هو عبارة مختصرة تكتب من طرف أشخاص معينين (رؤساء، وزراء، خلفاء، قادة ...) وتكون إما إنشاء أو اقتباسا وفي غالب الأمر تكون ردّا على أمر ما، وتحمل في طيّاتها رغم قصر حجمها دلالات وإيحاءات ومعانيّ كثيرة، أو بصيغة أخرى: التّوقيعات هي تعليق على رسائل بجمل قصيرة وموجزة .

وقد عرّفها **شوقي ضيف** بأسلوب آخر: **"التّوقيعات عبارات موجزة بليغة تعوّد ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقّعوا بها على ما يقدّم إليهم من تظلّمات الأفراد في الرعيّة وشكاواهم،**

---

[1]: ابن درستوية، كتاب الكتاب، ت: ابراهيم السامرائي وعبد الحسن القتلي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت، ط1، س 1397 م، ص 159 .

[2]: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج 1، دار العلم، بيروت، ط 1، 1385 هـ - 1965 م، ص 254 .

[3]: فنون النثر في الأدب العباسي، محمود عبد الرّحيم صالح، دار جرير، عمّان، ط 1 -1432 هـ 2011 م ص 92 .

[4]: النّثر الفنيّ في العصر العبّاسي الأوّل اتجاهاته وتطوّره ج1، محمد عبد الغني الشيخ، ديوان المطبوعات، الجزائر دط، س 1983م، ص 151.

وحاكاهم خلفاء بني عبّـاس ووزراؤهـم في هذا الصّنيـع، وكانت تشيـع في النّاس ويكتبها الكتاب ويتحفّظونها وظلامته، وقد سموا الشّكـاوي والظلامات بالقصص لما تحكي من قصّة الشاكي وظلامته، وسموها بالرقاع تشبيها لها برقاع الثّياب".[1]

ثانيا: نشأتهـا

إنّ فنّ التّوقيعات بدأ يلوح في الأفق مع الخلافة الرّاشدة، وبالتّحديد زمن أبي بكر الصدّيق رضي الله عليه ولعلّ السّبب الذي حال دون انتشار هذا الفنّ قبل ذلك، هو أنّ العرب أمّة أمّية شاعت القراءة فيها بعد ظهور الإسلام، ولم تنتشر بينهم على نطاق واسع إلا بعد الخلافة الرّاشدة، وممّا يدفعنا إلى ترجيح هـذه البداية أنّ التّوقيعات لا تكـون إلاّ في الكتابة على الرّقـاع والقصص وما إلى ذلك، أي: يعتمد التّوقيع على الكتابة التي تشمل القلم الذي يسطّر ما يتصوّره الذّهن ويتخيّله الوهم.

وإنّ أقدم التّوقيعات التي أسعفتنا بها المصادر هي التي وقّعها أبوكر الصدّيق رضي الله عنه، من ذلك توقيعه رضي الله عنه على كتاب ورده من خالد بن الوليد يستأمره في أمر العدوّ: **إذن من الموت توهب لك الحياة"**، ولو استعرضا توقيعات الخلفاء الرّاشدين لوجدناها لا تتجاوز أصابع اليدين، والسّبب في ذلك يعود إلى:[2]

1. ضياعها في تلك الفترة وعدم تدوينها، واختلاطها بأقوال الخلفاء رضي الله عنهم .
2. انتشار العدل والأمان .
3. نصرة المظلوم ومعاقبة الظّالم .
4. اتصال الخلفاء بالرعيّة وجلوسهم إليهم.
5. محدوديّة رقعة الدّولة الإسلاميّة.

[1]: العصر العباسي الأوّل، شوقي ضيف، دار المعارف، بمصر د ط، س 1119 م ،ص 489.

[2]: النثر في العصر العباسي: هاشم مناع ياسين، دار الفكر العربي، بيروت ط 1، س 1999 م وص 213-215.

وكما وضّح سابقا أن التّوقيعات عرفت في صدر الإسلام لكن نسبه يسيرة مقارنة بالعصور اللاّحقة.

وحين نأتي إلى العصر الأموي نجدها في الانتشار قليلا مقارنة بعصر الخلافة الرّاشدة: وما من خليفة إلاّ وله مجموعة من هذه التّوقيعات لا يستهان بها، ويمكن عدّها بذورا صالحة نمت في بيئة محفوفة بالرّعاية. ممّا جعلها أساسا لهذا الفنّ، والدّليل على ذلك وجود توقيعات عديدة من طرف الوزراء والقادة، مثال ذلك مؤسّس الدّولة الأمويّة معاوية بن أبي سفيان ما كتبه إليه عبد الله بن عامر في أمر عاتبه فيه، فوقّع في أسفل كتابه: "**بَيْتُ أُمَيَّة فِي الجَاهِلِيَة أَشْرَفُ مِنْ بيتِ حَبِيبٍ فِي الإِسْلاَمِ، فأَنْتَ تَرَاه** " . ووقّع معاوية في مجال الافتخار :"**نَحْنُ الزَّمَانُ مَنْ رَفَعْنَاهُ اِرتَفعَ ومَنْ وَضَعْنَا اتّضع**".[1]

وأضف إلى ذلك العديد من التّوقيعات للكثير كن الخلفاء، ولكنّني لا أريد التوسّع والتفصيل في ذكر النماذج لأنها سترد في الفصل الثّالث.

وحين نصل إلى العصر العبّاسي نجد أن الخلفاء منهم من كان شاعرا، ومنهم من كان أديبا، وكلّهم حرصوا على فتح أبوابهم للعلماء والفقهاء والشّعراء، وجذبوا لدولتهم عظام الكتّاب، واتخذوا لأبنائهم مشاهير المؤدّبين والعلماء ليقوموا على تربيتهم.

فلا شكّ – إذن – أن نجد فنّ التّوقيعات قد انتشر بعد أن نمت بذوره في العصور السّابقة، إذ قطف العباسيّون ثمار هذا الفن ناضجة، فمن التّوقيعات أذكر على سبيل المثال توقيع السفّاح أبو العبّاس في كتاب ورده من جماعة من أهل الأنبار يذكرون أنّ منازلهم أخذت منهم وأدخلت في البناء الذي أمر به ولم يعطوا أثمانها: " **هَذَا بِنَاءٌ أُسِّسَ علَى غَيْر تَقَوى** " ثمّ أمر بدفع قيم منازلهم إليهم.[2]

وعوامل ازدهار هذا الفنّ في العصر الأموي والعبّاسي، تعود إلى:

[1]: النّثر في العصر العبّاسي، هاشم منّاع ومأمون ياسين، ص 216.
[2]: المرجع نفسه، ص 218

1. انتشار الفتوحات الإسلامية واتّساع رقعة الدّولة الإسلامية بعد الانتصار على الفرس والرّوم، واعتناق كثير من الجنسيّات والقوميّات الدّين الإسلامي.
2. انتشار الكتابة والتّعلم والتّعليم، إذ أصبح رسول الله عليه وسلم يشجّع على تعلّم الكتابة – والتي هي عماد التّوقيعات – بطرق مختلفة .
3. حاجة الولّاة إلى الرّدود السّريعة على مكاتباتهم أو رسائلهم، لأهمّيتها وكثرتها، خشية تراكمها وتأخّرها، مما يحول دون حلّ مشاكل الولاّة والنّاس والنّظر في مصالحهم .
4. كثرة الأعباء الملقاة على كاهل الحكّام، لتنوّع إدارات الدّولة وشؤونها .
5. مواقف بعض الحكّام أو الولاة من الرّعية، ممّا يدفع بهم إلى الكتابة إلى من هو أعلى منهم لعرض حاجاتهم ومطالبهم .
6. تشدّد بعض الولّاة، وانتشار الفساد في بعض المناطق، وكثرة المظالم والتظلّم من الولاة، وتفضيل المصالح الشخصيّة على أمور الخاصّة بشؤون الدّولة والرعيّة .
7. ظهور الكثير من الكتّاب في بلاط الخلفاء والحكّام، ومقدرتهم على التأنّق في حياتهم الأدبيّة، إذ أخذوا يتأنّقون في كتاباتهم ويتبارزون في تزيينها وتأنيقها، من هؤلاء: جعفر بن يحي والفضل بن سهل، والحسن بن سهل وطاهر بن الحسين وغيرهم كثير .
8. اهتمام النّاس بالتوقيعات وولعهم بها وحرصهم على اقتنائها، يقال كان البلغاء يتنافسون في تحصيل توقيعات جعفر بن يحي، بحث قيل أنّها كانت تباع كلّ توقيع بدينار.[1]

ولقد اختلف في أصل التّوقيعات، فذهب بعض المعاصرين إلى أنّها أثر من آثار الفرس في الحضارة العربيّة الإسلامية، اقتبسها العرب عن الفرس، وجروا على التّعليق على الرّقاع المرفوعة إليهم تقليدا، لما كان شائعا لدى ملوك إيران في العهد الساساني ولجأ بعض هؤلاء الباحثين إلى إثارة الشكوك حول توقيعات الخلفاء الراشدين، في سبيل تعضيد رأيهم، ومن أبرز هؤلاء الكتاب: جورجي زيدان، وأحمد أمين، وشوقي ضيف ومحمد غنيمي هلال وشكري فيصل ومجدي وهبة وعيسى العاكوب.[2]

[1]: النّثر في العصر العبّاسي، هاشم منّاع ومأمون ياسين، ص 223

[2]: ينظر: رسالة آداب التّوقيعات في العصر العباسي، أمير عبد المولو حمد الحراشة: إشراف د محمود الدروبي، كلية الآداب والعلوم جامعة آل البيت، س 1425 هـ / 2004 م، ص 7

وقد اعتمد هذا الفريق عددا من الأدلّة التي تعزّز وجهة نظرهم، منها أنّ التّوقيع تقليد فارسي قديم، كما ذهبوا إلى التّشكيك في التّوقيعات العائدة إلى صدر الإسلام، إذ أبدوا تخوّفهم من أن تكون توقيعات الخلفاء الرّاشدين والأمويّين نقلت شفاها ثم حوّرت فيما بعد– في صورة توقيعات، كما يرى بعض من هدا الفريق أنه على الرّغم من إشارات بعض المصادر إلى توقيعات مبكرة قبل نهاية ق1 هـ –إلا أنّ هذه التّوقيعات تبدو على حسب قولهم–خدجة غير واضحة المعالم والقسمات، تفارق الشّكل المتطوّر لفنّ التّوقيع الذي شاع في العصر العبّاسي تقليدا لما كان شائعا عن الساسانيّين من صوره نظام التوقيع، في حين يرى فريق آخر من الكتّاب المعاصرين أنّ التّوقيعات العربيّة أثر عربيّ صرف، وأنها انبعثت من الصّدور العربية، فشأت نشأة عربي خالصة، في محيط عربي نقي، ومن أبر يمثل هذا الفريق محمد نبيه حجاب، و أحمد الحوفي، وعلى جميل مهنا.[1]

والدّليل على ذلك توقيعات الخلفاء الرّاشدين وخلفاء بني أميّة التي تؤكد أصالتها العربيّة، لأنّها من ضرورات الملك واستبحار العمران، فضلا عن طابعها الموجز الذي هو من سمات الأساليب السّامية لا الآرية الملطية، والأمثال الجاهلية المأثورة تنطق بهذا وتؤيّد على جذورها العربيّة الخالصة.[2]

ومن مؤيّدي هذه النّظرة نجد:**محمود المقداد** من خلال قوله التّالي: لقد ظلم الباحثون المحدثون من العرب والمستعربين أدب الترسل عندنا: فهو إذا أوجز واقتضب في هذا الشّكل المدعو بالتّوقيع كان بتأثير الفرس، وثمره من ثمرات الثّقافة الفارسيّة، وإذا أطنب وأسهب كان أيضا بتأثير الفرس، وهذا منتهى العجب وكأن العرب لا حول لهم ولا طول في أدبهم ونثرهم منه خاصّة، وهم الذين عرفوا أساليب الإيجاز والإطناب معا في القرآن الذي تلقنوه وتشربته نفوسهم وعقولهم بقوّة، أو كأنّهم عاجزون عن "الإيجاز في غير خلل والإطناب في غير ملل" هي العبارة التي تمثل جوهر مفهوم البلاغة في القول.[3]

---

[1]: رسالة آداب التّوقيعات في العصر العباسي، أمير عبد المولو حمد الحراشة ، ص 8 .

[2]: بلاغة الكتاب في العصر العباسي، محمد نبيه حجاب، ط 2، 1406 هـ - 1986 م ص 98-99.

[3]: تاريخ الترسل عند العرب في صدر الإسلام، محمود المقداد، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1413 هـ -1993 م، ص 398 -399.

فإذا كان العرب يدركون قيمة كلّ من الإيجاز في محلّه والإطناب في محلّه، فهم أغنى الناس عن تلقّ هذه المفاهيم من أي قوم من الأقوام أو ثقافة من الثّقافات، وإن كانوا يدركون قيمتها فهم غير مؤهّلين لتلقّي القرآن الكريم وحمله إلى الناس أصلا.[1]

ولا أريد الخوض في هذا الأمر من مؤيّد ومعارض لهذا الفنّ إن كانت أصوله عربية أم فارسية؟ إلاّ أن الواضح أنّ هذا الفنّ ظهر في زمن الخلافة الرّاشدة وانتشر وتطوّر في العصر الأموي والعبّاسي لأسباب عديدة التي أشير إليها سابقا،أمّا فيما يخصّ الاختلاف فكلّ منّا وله وجهة نظر، وأنا أميل إلى الرأي الثّاني الذي يوضّح ويعزّز الأصالة العربيّة لفنّ التّوقيعات وخير دليل توقيعات الخلفاء الرّاشدين، وقداسة العرب للإيجاز والاختصار.

ثالثا: خصائصها الفنّيـة

التّوقيعات نوع من الأنواع الأدبيّة الرّفيعة، لها خصائص تميّزها عن باقي الفنون الأخرى، وهي [2]:

1. الاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النّبوية الشّريفة، والتّضمين للشّعر والنّثر، فجاء ذلك الاقتباس وهذا التّضمين في مكانـه اللاّئق به، ومحلّه المخصوص بوصفه، فوقعت في أحسن موقـع وقامت في أجمل مقام، ونظمت في أجمل نظام، وأعنيت المعنـىّ بالأمر عن شرح الحال، وإطالة المقال، وهناك الكثير من التّوقيعات المؤلّفة حملت في طيّاتها أو مضامينها معاني إسلاميّة .
2. الابتعـاد عن التملّـق والمداهنـة، أو المراء والكـذب، أو المخـادعـة والمراوغـة، أو التّخـاذل والاستكانة، فهي عبارات صحيحة وصادقة وصريح، وهي تصدر عن رئيس إلى مرؤوس، وترد على المطلوب، فهي جواب شاف وردّ واف .
3. جرت مجرى الأمثال، فأصبح النّاس يتداولونها ويردّ دونها .
4. تمتاز التّوقيعات بقصر جملها، مع توازنها في الطّول والقصر .
5. إيجاز اللّفظ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه، وجودة الكناية .

[1]: تاريخ الترسل عند العرب في صدر الإسلام، محمود المقداد، ص 399.

[2]: النثر في العصر العباسي، هاشم مناع ومأمون ياسين، دار الفكر العربي، بيروت، ط 1 س 1999.ص 237-238.

6. لقد شاع فيه بعض المحسّنات البديعيّة مثل: السّجع والجناس والطّباق والمقابلة .
7. احتوائها على صيغة الأمر في معظم الأقوال الصّادرة .
8. التّوقيعات في معظمها استعارات تمثيليّة، لذلك جاء الخيال فيها جزئيّا، أضف إلى ذلك أنّها تعبير عن واقع، ومعالجة لقضيّة، وتقرير لحقيقة، وحلّ مشكلة.[1]

ومن خصائص التّوقيعات كذلك: الإيجاز في التّعبير وهذا هو الأصل فيها قال الكلاعيّ: "هذا النوع من الكلام ممّا عدلوا فيه عن التطويل والتكرار، إلى الإيجاز والاختصار "، ونادرا ما يعمد الكاتب إلى الإطالة [2]. وهذا يدلّ أو يعني أنّ صفة الإيجاز والدقّة والبلاغة وعمق المعنى من الصّفات المميّزة لفنّ التّوقيع.

ومن الملاحظ أيضا في فنّ التّوقيعات أنّ هناك من يستقلّ بنفسه في أداء المعنى، وبعضها لا يستقلّ بنفسه في أداء المعنى، أي أنّه لا يفهم إلاّ في ضوء معرفة المناسبة التي وضع فيها، ومضمون الرّسالة التي كتب عليها.[3]

فالتّوقيعات تجمع بين الإيجاز والجمال والقوّة.

رابعا: موضوعات التوقيعات

لم تكن التّوقيعات تقتصر على موضوع دون آخر، فقد شملت أغراضا شتّى وموضوعات متنوّعة، وأنماط عديدة، نذكر منها ما اشتهر وشاع في هذا الفنّ:

1. السّياسة شتّى ضروبها، والأمثلة على هذا النوع كثيرة، لأنّ التّوقيعات كانت تكتب أكثر ما تكتب على رسائل الولاّة و الوزراء والحكّام والقرّاء ومن هم في طبقاتهم . والجدير بالذّكر أنّ موضوعات هذا النّوع تتضمّن، التّوجيه والإرشاد، والتّهديد والوعيد، والتّرغيب والتّرهيب ...
2. رد المظالم، وإقامة العدل، وما شابه ذلك .

[1] : النثر في العصر العباسي، هاشم مناع ومأمون ياسين، ص 239.

[2]: ينظر: فنون النثر في الأدب العباسي، محمود عبد الرحيم صالح، دار جرير، ، عمان، ط 1، 1432 هـ، 2011 م، ص 96.

[3]: المرجع نفسه، ص 96 .

3. ما يتعلق بالحياة الاجتماعية من: فقر، ودين، وتحسين أوضاع، وبناء منازل .
4. ما يتعلق بالحياة الدّينيّة .
5. الفخر.[1]

وستكون هناك أمثلة وشواهد توضّح وتعزّز هذه الموضوعات في الفصل الثّالث.

وهذه الموضوعات كلّها تتضافر جميعها لتشكّل ظاهرة فريدة من نوعها في الشّكل والمضمون، لأنّها تدعو إلى الأخلاق الحميدة، وتوجيه الأمة إلى الكمال والحياة إلى الأفضل، فهي تعالج القضايا بكلّ وعي وحزم وقوّة بعيدة ــ إلى حدّها ــ عن المصالح الشخصية والأهواء الذاتية .[2]

فالتّوقيعات فن أدبّي رفيع مرتبط بنشأة الكتابة (فن الترسل) فهو يعالج ويوضّح قضايا عديدة، مستمدّة من الواقع، والتّوقيع ليس ما يعرف حديثا بالإمضاء signature ،ولقد وضّح ذلك فيما سبق، فهي عبارة موجزة بليغة وفصيحة لها معاني أكثر من الألفاظ الظّاهرة، ولها تأثير قوى في أذهان العرب، لأنهم العرب بطبعهم يجنحون إلى الاختصار والدّقة في الكلام.

ولكنّ هذا الفن لم يعط الأهميّة أو لم ينل حقّه مثل الفنون الأدبية الأخرى كالخطابة والحكم والأمثال، فلقد عرف كما ذكرنا سابقا انتشار وازدهارا في العصرين العبّاسي والأموي، إلى أنه بعد ذلك بدأ في الاندثار والسّبب في ذلك يعود إلى:

أ ــ **أسباب تاريخية:**

"سقوط الخلافة ودخول هولاكو التّتريّ بغداد، إذا استولى المغول والأعاجم على السّلطة، الأمر الذي أدّى إلى إبطال رسم الكتابة المعتبرة،و صار أكثر ما يكتب عن ملوك التتار بالمغلية أو الفارسيّة، إلا أنّ ديوان التّوقيع ظلّ قائما في بعض الدّول التي لم تصل إليها أبدي المغول، ففي القاهرة مثلا ظل التّوقيع قائما، ونجد لذلك ذكرا في بعض المصادر التي تشير إلى أنّ جمال الدين بن نباته

[1]: ينظر النثر في العصر العباسي، هاشم مناع ومأمون ياسين، دار الفكر العربي، ط 1 س 1999. ص 223.224.
[2]: المرجع نفسه، ص 224.

المصري (ت 768 هـ) كان في ذلك الدّيوان، أي في القرن الثّامن هجري، لكن هذا الدّيوان لم يعد كما كان عليه في السّابق، فالتّوقيعات خرجت عن شكلها في الإيجاز، والمتانة والقوة والجودة والتضمين، والاقتباس، وكان بعض هؤلاء الكتّاب يوقّعون توقيعاتهم فتصل إلى عدّة أسطر، ممّ يجعلنا ندخلها في باب الرّسائل وليس التّوقيع، لأنّ التّوقيع رست أصوله ورسخت قواعده.[1]

ب _ أسباب دينية وثقافية واجتماعية:

1- عدم أهلية كثير من الكتاب والولاة، وعدم معرفتهم بالقرآن الكريم والسّنة النبوية الشّريفة والشّعر وما إلى ذلك، لأنّ الولّاة والحكّام أنفسهم من جنسيّات مختلفة لا تتقن العربيّة.

2- الغزو الفكري بكلّ أنواعه، وانتشار اللّغات بين النّاس، ودخول كثير من المفردات الأجنبيّة إلى العربيّة، وشيوع بعض المصطلحات في التّعامل بين النّاس من أجل التقرّب إلى السّلطة.

3- عدم اهتمام الحكّام باستقطاب مثلما كان عليه الوضع.

4- عدم تعاون كثير من الكتّاب مع السّلطة الأجنبية، وعزوفهم عن الالتحاق بوظائف كتابيّة ممّا أدّى إلى إيقاع الأذى والضّرر في بلاد الإسلام والمسلمين.[2]

فحقيقة التّوقيع فن أدبي عريق، يتّصف بخصائص فنيّة مميّزة تميّزه عن باقي الفنون النثريّة الأخرى، أسلوبه أدبي له صبغة جمالية تزيينية، وأيّ مطّلع على هذا الفنّ يلمس ذلك، فكلماته على شدة قصرها،فكلّ مفردة فيه توحي إلى دلالات عدّة.

[1]: ينظر: النّثر في العصر العباسي: هاشم مناع ومأمون ياسين، ص 235.

[2]: المرجع نفسه، ص 236.